خلقُ أمِّنا حواء من ضِلع آدم عليه السلام

سؤال: يقال: إن أمّنا حوّاء خُلقت من ضلع أبينا آدم عليه السلام، ما رأيكم؟

الجواب: لم يحظَ الإنسان بإنسانيته نتيجة تطورٍ ما، بل خُلق خلقًا خاصًّا مستقلًّا، ولم يبلغها بكسبه وترقيه وتطوره من نوع إلى آخر أو نتيجة الانتخاب الطبيعي، بل خُلق بوصفه نوعًا إنسانيًّا، والله تعالى هو مَن خلقه؛ وأصل خلق آدم عليه السلام معجزةٌ وخارق لما اعتدناه مثل خلق عيسى عليه السلام؛ فلا يمكن إيضاح المعجزة بمنطق الأسباب، فقد عجز كل من علماء الطبيعة وأدعياء التطور عن شرح كيفية ظهور الأحياء؛ ولم تقم نظرياتهم على أسس علمية صحيحة، بل على أسس ضعيفة واهية، وصلت إلى حافة الإفلاس لما واجهتها الانتقادات القوية، فكم وكم من الكتب والمؤلفات يمكن مراجعتها في هذا الأمر.

وبحث أي مسألة في عالم الأسباب يجري وفقًا لقاعدة العلة والمعلول، أي "السبب والنتيجة"؛ ووفقًا لهذه القاعدة نقول مثلًا: من الضروري -بعد مشيئة الله تعالى- توفُّرُ شروط معينة لكي تنمو شجرة باسقة من فسيلة صغيرة، كالتربة الصالحة والمناخ المناسب والحيَوية الضرورية والعقدة الحياتية في الفسيلة نفسها، وعند اجتماع هذه الأسباب معًا يظهر ما نطلق عليه "العلّة التامة"؛ وهذه "العلة" أي السبب تؤدي إلى ظهور "المعلول" أي النتيجة؛ أي ستؤدي هذه الأسباب بمشيئة الله تعالى إلى ظهور شجرة من فسيلة وفرخة من بيضة.

الخلقُ الأول للإنسان معجزة، ويمكن بحث هذه المسألة في إطار علاقة السبب بالنتيجة: لنفرض أننا نريد توليد كائن حيّ من كائنٍ حيٍّ آخر، فهيأنا المناخ المناسب لتأمين التناسل بين طائر ودجاجة، وبين فرس وحمار، فلن تسفر العملية الأولى عن توالد، وسيولَد بغل في الثانية، أي حيوان هجين لا يتكاثر، فالعلة هنا ناقصة؛ أي هناك قصور في تحقيق النتيجة حسب قانون السبب والنتيجة؛ أمّا في البشر فيولد إنسان كامل من الرجل والمرأة إن التقى المني والبويضة في الرحم؛ فالعملية هنا تامة، والأسباب متوفرة، وكل شيء يجري على أكمل وجه؛ فيتشكل الجنين بمشيئة الله وإرادته، وينمو من طور إلى آخر ثم يولد، أي تتحقق هنا النتيجة الكاملة لاجتماع الأسباب كلها معًا، ولا جرم أن الله تعالى قادرٌ على تغيير النتيجة.

هذا إيضاح الموضوع من ناحية الأسباب، لكن إن خرج الأمر عن تسلسل السبب والنتيجة، والعلة والمعلول، فعلينا أن نؤمن به بالشكل الذي أخبرنا به الله تعالى ورسوله ﷺ لا على أساس التطور أو الانتخاب الطبيعي.

أخبرنا سبحانه مثلًا بأمر خارق للعادة لا نستطيع تعليله أو تفسيره كخلق آدم عليه السلام من دون أب وأم، وخلق عيسى عليه السلام من دون أب؛ أي لو شاء الله لخلق أيَّ كائنٍ من دون أب أو من دون أمٍّ أو من دون أب وأمّ؛ ولا يمكن هنا تفسير الأمر بالأسباب، فالقرآن الكريم يتحدى ويقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (سُورَةُ العَنْكَبوتِ: ٢٠/٢٩)، أنى لنا أن نفسّر كيف بدأ الخلق من العدم؟!

ومثله خلقُ حوّاء من آدم عليه السلام، فهو معجزة أخرى لا يمكن تفسيره بسلسلة الأسباب الجارية، ومن السذاجة إنكاره بحجة أننا لا نستطيع

تفسيره، فهذا يرِدُ أيضًا في خلق آدم وعيسى ﷺ، لقد نسي الناس كيفية خلق آدم وحواء ﷺ، فخلق الله تبارك وتعالى عيسى عليه السلام من غير أب فذكّرهم بالخلق الأول من جديد، وقال تعالى ردًّا على السائلين عن ولادة المسيح عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٥٩/٣)؛ أجل، نسي الناسُ كيف بدأ خلق النوع الإنساني، فكان خلقُ عيسى عليه السلام تذكرة جديدة.

أمّا خلق أمّنا حواء من ضلع آدم عليه السلام، فأعتقد أن المراد إثارة جدل جديد في هذا الموضوع، فلماذا خلقت حواء من ضلع ولماذا من آدم عليه السلام؟

تأملوا أولًا هذا الأمر المهمّ: الأدلة على أن الإنسان من خلق الله تعالى بلغت كثرة وقوة لا يمكن ردُّها، وهذا عينه دليل باهر ظاهر على وجود الله، بل الكون بقوانينه ونظمه ومبادئه كلها ينطق بذلك، بل الجوهر الذاتي للإنسان وعالمه الداخلي وقلبه وسِرّه ولطائفه التي لم تُكتشف بعدُ تشهد بذلك، هذا عدا آلاف الأدلة القاطعة على وجود الله؛ وكلّ من استمسك بشيء من هذه الأدلة يحاول الوصول إلى شاطئ السلامة سواء في ذلك الفلاسفة والمفكرون وعلماء أصول الدين، فما بالك إن اجتمع ألف دليل، فلك أن تتصور قوة الاستدلال ودرجته.

ويحاول اليوم بعض المنكرين والملحدين غض الطرف عن هذه الأدلة كلها وبحْثَ خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام لاتخاذه مستندًا للإنكار والإلحاد بزعمهم، يصف المرشد الكبير بديع الزمان رحمه الله أمر هؤلاء فيقول:

> "وا أسَفاه! إن وجودَ النفس عمى في عينها، بل عينُ عَمايتها، ولو بقي من وجودها قدر جناحِ الذبابة لغدا حجابًا يحول دون رؤيتها شمسَ الحقيقة، فقد شاهدتُ أن وجود النفس هذا يجعلها

تنكر قلعة عظيمة مرصوصة بالبراهين القاطعة إن رأت في صخرةٍ صغيرة منها ضعفًا وهشاشة، فتنكر وجود القلعة بتمامها. فمن هنا تعلم درجة جهلها الناشئ من رؤيتها لوجودها" (٢٩).

أجل، فما أفدح قصور هذه النظرة العوراء! فالإنسان والكون زاخران بآلاف الأدلة على وجود الله تعالى وإثبات هذه الحقيقة.

"الخلق من ضلع" ثبت في الصحيحين وفي مسند أحمد بن حنبل، وورد أيضًا في سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ١/٤)، فالضمير "ها" يعود للنفس لا لآدم، ونرى هذا أيضًا واضحًا في آية أخرى: ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٦/٣٩).

استوقفني هذا التعبير؛ إذًا لم تُخلَق حواء من آدم، بل من ماهية آدم، وهذا دقيق جدًّا؛ فشخص آدم غيرُ ماهيته، فالإنسان مثلًا طوله كذا ووَزنه كذا وملامحه كذا، ثم إن له ماهية وظاهرًا وباطنًا وفكرًا ودرجةَ صلةٍ بالله قربًا أو بُعدًا؛ فإذا تناولنا الإنسان من زاوية ذاته، فينبغي تناوله من الوجه الثاني أي الماهية، فالأول هيكل ليس إلا؛ فذات الإنسان ونفسه بهذا المعنى شيء، وجسده شيء آخر، والقرآن عند موضوع خلق حواء قال إنها خلقت ﴿**مِنْهَا**﴾ أي من "نفْس" آدم لا من آدم.

والحديث الوارد في هذا خبر آحاد، فلزم بيانه بالآيات، وهذا أصل مهم من أصول تفسير الآيات والأحاديث؛ فالآية من كلام الله، فهي متواترة، فوجب ردّ الحديث إلى الآية لتبيين إبهامه، ومن المهم ملاحظة السياق والسباق في الحديث، فيجب ملاحظة هذا الأمر.

(٢٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسي: المثنوي العربي النوري، ص. ١٧٠ (ذيل القطرة).

فالرسول ﷺ يقول: "**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**"(٣٠).

فسبب ورود هذا الحديث أو مناطه تربية النساء وسياسة البيت؛ أجل، فإن تعجلت واستعجلت في إصلاح المرأة وقع الشّرخ، وإن تغافلتَ عنها بقيتْ على ما هي عليه. يشير الرسول ﷺ وهو يشرح هذا الموضوع إلى أمر مهم، وهو أن المرأة أكثر قابلية للاعوجاج من الرجل، وأكثر رقة وقابلية للانكسار، فليس المقصد الأصلي للحديث الشريف أنّ حواء خُلقت من ضلع آدم، بل أن المرأة إن تُركت كما هي بقيتْ عوجاء، وإن حاولت تقويمها بسرعة انكسرت.

وللبيان بهذا الأسلوب أسرار، فالرسول ﷺ يقول: "**خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ**"، و"**مِنْ**" لغة قد تأتي للتبعيض، وقد تأتي للبيان؛ وقد أجمل الرسول ﷺ في حديثه فالمعاني كلها محتملة.

ومثل هذا كثير في الحديث الشريف، مثلًا يقول ﷺ: "**لَيْسَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ**"(٣١)؛ دلَّ الحديث أن لكل إنسان شيطانًا، وللحيوانات أيضًا، ففي حديث آخر: "**لا تُصلّوا في مبارك الإبل، فإنها من الشياطين**"(٣٢)؛ أي كأنها فضلة من شيطان، أو قل: بعض الحيوانات تتصرف أحيانًا تصرفات الشياطين؛ إذن يجلب الحديث انتباهنا إلى التصرف الشيطاني، فعندما نرى قاسي القلب بليد المشاعر نقول عنه: "كأنه خلق من حجر"، ولا شك أننا لا نعني أنه خلق من حجر، بل هو

(٣٠) صحيح البخاري، الأنبياء، ١؛ صحيح مسلم، الرضاع، ٦٠.

(٣١) المسند لأحمد بن حنبل، ١٦٦/٤.

(٣٢) سنن أبي داود، الصلاة، ٢٥.

مجـاز عن قسـوة قلبه وتبلد شـعوره وفقره العاطفـي، وعندما نقول "فلان شيطان" فالمراد أنه يضلل الناس ويغويهم ويجرّهم إلى طريق الفساد.

ومعنـى الحديث في ضـوء معنى الآية التي تلوناها: المرأة خُلقت من ضلـع آدم عليه السلام، أي المرأة جزء من الرجل، أي من جنسه، أي من خواصه الوراثية نفسـها، لو لم يكونا من جنس واحد لَما أمكن أن يتناسـلا، فتمام الآية: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ١/٤)؛ أي لو كانا جنسين مختلفين لما حدث بينهما تناسل، فوجب أن يكونا من جنس واحد.

وكلمـة "الضلـع" فـي الحديـث تفيـد معنى الميـل للعوج وسـهولة الاعوجـاج وسـرعته أكثـر من معنـى الاعوجاج نفسـه، فما أبلـغ اختيار الرسـول الكريـم ﷺ لهـذا التعبيـر، أي أنّ المـرأة أكثـر قابلية مـن الرجل للاعوجـاج، وهـذا لا جـدال فيـه، فحـال العالَم شـاهد على هـذا، فأهل الغفلـة والضلال يسـتخدمون المـرأة مِصيَدة لإغواء الرجـل، وقد ابتذلت المرأة في القرن العشـرين ابتذالًا لم يشـهده أي عهد وأي عصر. فامتهانها فـي أكثـر الإعلانات ابتـذالًا لِيغدو الإعلان جذّابًا له مغـزى كبير وعميق؛ فهذا من قصورها وضعفها كما أشـار إلى ذلك الحديث الشـريف، فتجد من يسوّغ امتهان صور المرأة في إعلانات إطارات السيارات وأثاث حوض الاسـتحمام ولـوازم الحمام، وفي إعلانات اللحم المقدد والشـطيرة؟ فما العلاقة بين المرأة وهذه الأشياء؟ فالرسول ﷺ أخبرنا أن المرأة خلقت من أعوج ما في الرجل، وإنّ في استخدام المرأة لا سيما اليوم أداةً للانحلال والانحـراف بيـد أهـل الضلالة والغفلـة لتأكيدٌ لهذا المعنى؛ فـكأن المرأة اتخـذت رمـزًا لأكثـر جوانب الجنـس الإنسـاني اعوجاجًا، ولا شـك أنه لا أجمل ولا أعذب في بيان هذا الأمر من هذا التعبير.

أمر آخر: جاء في فصل "التكوين" في التوراة[٣٣] صراحةً أن حواء خلقت من جنب آدم عليه السلام، ولا محل للاستغراب من أخذ جزء من آدم -وهو بين الطين والماء- لتخلق منه أمّنا حواء، فالخلق الأول معجزة، وآدم وحواء عليهما السلام أثر من آثار هذه المعجزة.

ولا يمكن للعلم أن يدلي بدلوه هنا في شأن الخلق الأول، فهو هنا أصم وأبْكم وأعمى؛ فالخلق الأول معجزة فنسلم بكل ما قاله الله تعالى، ولا نسلم بهذا تسليمًا أعمى، بل نستشعر في كل شيء من الذرة إلى الكون كله عِلْمَ الله المحيطَ بكل شيء وقدرتَه القاهرة وإرادتَه النافذةَ من نوافذ العلوم والفنون فنسلّم به بعقولنا وقلوبنا.

والله تعالى أعلى وأعلم، والحقُّ هو ما وَرَدَ في كتابه المبين.

(٣٣) باب: ٢، الآية: ٢١-٢٣.

"وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا"

سؤال: ما تفسير هذه الآية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾؟

الجواب: وردت مسألة تعليم الأسماء لآدم عليه السلام في سياق الحديث عن خلافة آدم في الأرض واستفسارِ الملائكة ببصيرتهم النافذة قائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٣٠)، أي إن في الإنسان عناصر جِبليّة من أصل جوهره تشير إلى أنه سيُفسد في الأرض ويسفك الدماء، وكأنهم قالوا: يا ربنا إذا ما نظرنا إلى معدن هذا الإنسان يتبدى لنا أن فيه قابلية لأن يكون سفاكًا للدماء مُستنقعًا للنفاق.

والملائكة مَثَلهم كمثل الذين يستدلون بسِمات الوجه على روح الإنسان ومعدنه، فرأوا ما ذُكِر في المحيّا المعنوي لسيدنا آدم عليه السلام؛ إذ كان ذلك كلّه محرّرًا على وجه بشرٍ خُلِق من طين الأرض، وكانت فيه خصائص أخرى من أثر النفخة الإلهية، إلا أن الملائكة لحظت الشِّقَّ الأول.

أجل، في الإنسان جانبان: التراب، والنفخة الإلهية؛ ففي التراب الشهوات والأهواء والأطماع والغل والحقد؛ وبالنفخة الإلهية خُلِقَ في أحسن تقويم ومُنح قابلية ليرقى إلى أعلى عليين، وليتبوأ مكانة بين ساكني الملأ الأعلى.

لحظت الملائكة الجانبَ الجسماني في آدم عليه السلام، فاستفسروا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٣٠)، وعلَّم الله آدمَ الأسماءَ كلها من حجر وشجر ومدر ليمتحن الملائكة، ولما كان تعليم الأسماء وحدها لا يعني شيئًا علَّمه الله مُسمَّيات هذه الأسماء إجمالًا.

لكل اسم مُسَمًّى، وكل ما في الوجود عبارة عن واحد يتشكل من اسم ومسمّاه، فتعليم الأسماء لآدم عليه السلام معناه أنّ الله تعالى علّمه مدلول تلك الأسماء أيضًا، أمَّا سيدنا محمدٌ ﷺ فعلَّمه الله تفصيل ذلك المجمل؛ أجل، علّم الله آدم عليه السلام فهرس كتاب الأشياء، وفصّله لرسول الله ﷺ.

وأشار الحقّ ﷻ بمسألة "تعليم الأسماء" إلى أن آدم عليه السلام هو خليفة الله في الأرض؛ خلقه من عناصر من أديم الأرض، فسُمي آدم عليه السلام، فهو خليفة الله ﷻ في الأرض وصاحب مقام الجمع -كما قال محيي الدين بن عربي-؛ ورؤيةُ الأشياء بعدسة آدم تُجلِّي وحدة الوجود في رأي ابن عربي، والإنسان هو محلُّ نظر الله في الأرض وجامع أسمائه، فهو صاحب مقام الجمع لا مقام الفرق، وإلى هذه المنزلة الخاصَّة التي تبوّأها آدم عليه السلام أشارت مسألة "تعليم الأسماء".

ومعنى هذا أنَّ الله تعالى ألهمَ آدم عليه السلام خلاصة العلوم كلّها، فتعلم آدم عليه السلام بالوحي زبدة الحقائق الدينية ومجمل العلوم الطبيعية من كيمياء وفيزياء وفلك وطب وغيرها، أي مبادئ هذه العلوم وأسسها وقواعدها الأساسية، لا تفصيلها بكل دقائقها.

أجل، ربّما كان تعليمُ هذه الأشياءِ المجملة شيئًا من الرموز، لكن هذا القدر منها عظيم جدًّا بلا ريب حتى إنّها عُرضت على الملائكة فلم تعرف عنها شيئًا.

ويمكن تفسير عدم علم الملائكة بها هكذا:

عالَم الأجسام مغاير لعالم الأرواح تمامًا، والبشر كائن من عالم الأجسام من ناحية، وكلّ جزء من كتاب الطبيعة الذي نشاهده هو من هذا العالم؛ ولا يتأتّى معرفة المشاهد الجسمانية معرفة تامة لغير الجسمانيين ولو من وجه، فمثلًا: هناك أبعاد للرؤية والسماع في العالم الجسماني،

وهـذه الحـواسّ خاصّـة بالعالم الجسـماني؛ أمـا الملائكة الكـرام فأبعاد الرؤية والسـماع عندهـا مختلفة جذريًّا لأنها موجـودات روحانية؛ فبعض الأجسـام اللطيفـة حتـى الجنّ تتمثـل في صـورةِ كائنٍ جسـمانيّ، وتتخذ جسـده عدسة لترى منها عالم الشهادة، ولتشـاهد بعينه العالم الجسماني؛ فماهيـة هذا العالم فـي نظرك غيرها في نظر الملائكـة والروحانيين؛ ترى الملائكةُ الكرام الربيـعَ والصّيف والزهور والحشـرات والهوامّ بخلاف ما تراها أنت، فنظرُ الملائكة له أبعاد أخرى؛ لذا تشـاهد الأشياءَ على خلاف ما تراها به وتشعر وتتمتـع به أنت.

وقـد تكـون الأسـماء التي علّمهـا ربنـا ﷻ لآدم عليه السلام حقائـق مجملة عن الآيات الكونية والشـريعة الفطرية والقوانين السـارية في الكون، ولما كانت الملائكة ذات أجسـام لطيفة لا يمكنها معرفة هذه الأشـياء التي هي من خصائص الأجسـام الكثيفة، قالت: ﴿**سُـبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٣٢/٢).

وعند الجمـع بين هاتين المسـألتين يتبين أنّ الحقّ تبارك وتعالى علّم آدم عليه السلام الحقائـقَ المجملـة فـي الكون، ثم نضـج هذا العلمُ شـيئًا فشـيئًا حتـى بلـغ الكمال فانتهى إلى سـيّدنا محمد ﷺ صاحـب الكمال والمقام المحمود، فكان محمدًا وأحمد ومحمودًا وحامدًا؛ فهو مظهر لكلّ شـيء يُعلَّـم، أي أصبح بكل ما أوتيه هاديًا وسـراجًا منيرًا لسـبلٍ تبلـغ بسـالكها الحمدَ والثناء، ولم يُؤْتَ أحد حتى الآن مثل ما أوتي ﷺ؛ وهو مثل القرآن الكريم جاء ليكون مظهرًا للأسماء الإلهية كلها، وهو بين الأنبياء كالفاتحة بين سوَر القرآن.

وكان آدم عليه السلام أول مظهر للآيات السـبع في سـورة الفاتحة، ومدارُ الآيات السـبع على سـبع صفات قدسيّة، وتلمح الآيات السبع الصفاتِ

السبعَ من مشكاة اللدنّية، وتكشف عن حقائق سبع. وهذا الأمر يمثله الإنسان تمثيلًا كاملًا في الصلاة، فيسجد على سبعة أعضاء، أما النبي ﷺ فهو مظهر للفاتحة التي فُصلت آياتها في القرآن الكريم بأكمله، وهذا يعني أن الفاتحة فُصلت بالنبي الأكرم ﷺ؛ فسُمي النبي ﷺ "أحمد"، وأمته "الحمّادين"، ولواؤه الذي سيجتمع الناس يوم القيامة تحته ليستظلوا بظله "لواء الحمد".

أجل، ألهم الله تعالى النبي ﷺ وعلّمه الأسماء تفصيلًا، فما أسعده وأسعدنا!

وفي مسألة تعليم الأسماء إشارة أيضًا إلى العلوم الطبيعية؛ فهذه الآية كما يقول الأستاذ النُّورْسِي ﷺ تعبّر -من حيث جامعية ما أودع الله في الإنسان من استعدادات- عن كل ما ناله من الكمال العلمي والتقدم الفني، ووصوله إلى خوراق الصناعات والاكتشافات، وهذا التعبير ينطوي على رمز رفيع دقيق، وهو: أنّ لكل كمالٍ ولكل علمٍ ولكل تقدمٍ ولكل فنٍّ -أيًّا كان- حقيقةً سامية عالية، وتلك الحقيقة تستند إلى اسم من أسماء الله الحسنى، وإلا فهي ظل ناقص مبتور باهت مشوش.

فالهندسة -مثلًا- علم من العلوم، وحقيقتُها وغاية منتهاها هي الوصول إلى اسم "العدل والمقدِّر" من الأسماء الحسنى، وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذينك الاسمين بكل عظمتهما وهيبتهما في مرآة علم الهندسة.

والطب أيضًا علم وفن، ولا يتأتى إدراك حقيقته وكماله إلا بالاعتماد على اسم الله "الشافي"، وبمشاهدة تجليات رحمته في صيدليته العظيمة على سطح الأرض، وبمعرفة أن الشافي الحقيقي هو الله ﷻ.

وهكذا سائر العلوم والفنون، يُعرف مداها بقدر إسنادها إلى اسم من الأسماء النورانية لله تعالى، وبالأحرى استشعار استنادها إلى أسماء الله؛ وإلا فلا يصل الإنسان في ظلمات النظريات والفرضيات إلا إلى الأوهام.

والله أعلم بالصواب.

الخضر عليه السلام

سؤال: هل يمكن لقاء الخضر عليه السلام؟

الجواب: تتعمق معارف الإنسان على قدْر سبره للقضايا الفكرية ومصادرها، ويرقى في معارج عالم القلب والروح على قدر تأمّله وتبحره فيما يتعلق بهما، ويبلغ من أعماق المعرفة ما يبلغ على قَدْر خُبْره بالقضايا العلمية واكتشافه كلّ يوم لمركَّب بِكْرٍ ومعارف جديدة؛ وفوق هذا كلِّه، فمن لا يشغله إلا رضا الله تبارك وتعالى يزداد عمق صلته بالله تعالى.

ومن وثّق عُرى صلته بالله ﷻ خلص إلى نتائج تفوق كل ما يمكن أن يبلغه غيره بالطرق الأخرى؛ فقد يجود عليه العليم الخبير بفتحٍ علمي من لدنه بقليل من الجهد وشيء من العلم يُكلَّل، فيكتشف ما يتعذر عليه اكتشافه وإن قضى سنين في العمل والبحث، وتكفيه قراءة كتاب أو مقال مرة واحدة ليدرك آلاف المعاني؛ ومدى علومِ الظاهر إنَّما يحدِّده مدى سعي المرء فيها، وهو عينه المدى الذي يشغله مِن قلبه وعقله؛ لكن توثيق العلاقة بالله يُكسِب المرءَ معارفَ من علوم الباطن ونتائج من علوم الظاهر؛ أجل، بينما الأول مشغول بعلوم الظاهر فحسب نجد الآخَر قد عبَر حدود عالم الباطن وبلغ شأوًا يمكّنه من إدراك الظاهر.

وفي عصرنا سادت المادة، فما عاد يُبحَث شيء إلا بمقاييس ومعايير ماديَّة، ومن ثم استَوحش أكثرُنا من الروحانيات وحيل بيننا وبين القيم المعنوية؛ بل أتى انسحاقنا تحت المادة على الروحانيات فجعلَهَا أَثَرًا بعد عِين؛ نسأله سبحانه ونبتهل إليه أن يجعلنا من أرباب القلوب.

فمن وثق عُرى صلته بالله ﷻ قد يُطلعه الله على الغيب، فيجتمع بالملائكة الكرام عليهم السلام، ويتصلُ بالجنِّ والروحانيين، ويرى الخضر عليه السلام، بل يرقى إلى "مقام الخضر"(٣٤).

أجل، كلّ هذا ممكن لمن وثَّق صلته بالله، وتجرد عن الصورة والشكل، واستغل عتاده الروحي كله للوصول إلى الله.

تراود بعضَ الأشخاص أفكارٌ مثل: هل لنا أيضًا أن نجتمع بالخضر عليه السلام؟. إن هذا منشؤه الإدراك المحدود للمسألة؛ فيمكن لأي فرد أن يرى الخضر عليه السلام، ومن يدري فقد يصلي معكم، أو يوجد في مساجدنا من كان سيره وسلوكه الروحاني في ظلّ سيدنا الخضر عليه السلام، بل قد يكون بينكم ملائكة كرام، وروحانيّون يرون عالم الشهادة بأعينكم، ولعل بينكم مخلوقات لطيفة تشارككم في مشاعركم... كل هذا ممكن لكنكم لا تشعرون بهم؛ اللهم مُنَّ علينا بانكشاف في الأمور المعنوية كما مننتَ علينا به في الأمور المادية.

وقد أخبرنا الأصفياء ذوو الأرواح الزاكية أنهم اجتمعوا بالخضر عليه السلام وبالملائكة الكرام والروحانيّين، وهؤلاء يخشون الله حق الخشية وترتعش قلوبهم من خشيتهم لربهم وتقواهم، فيستحيل أن يذكروا أمرًا موهومًا لا أصل له؛ إن قولهم حق بلا ريب، ونحن نصدّقهم يقينًا.

وقال أهل الكشف والشهود: الخضر عليه السلام حيّ؛ ورغم أن بعض العلماء الأجلاء -مثل الإمام البخاري- يقولون بوفاته إلا أن معظم الأئمة والفقهاء يرون أنه حي، إذًا يمكن أن يراه بعض الناس حقيقة ويجتمعوا

(٣٤) "مقام الخضر عليه السلام" على حد قول الأستاذ بديع الزمان: "إن في مقامات الولاية مقامًا يُعبّر عنه بـ"مقام الخضر"، فالولي الذي يبلغ هذا المقام يجالس الخضر عليه السلام ويتلقى عنه الدرس، ولكن يُظن أحيانًا خطأً أن صاحب هذا المقام هو الخضر بعينه". (بديع الزمان سعيد النُّورْسي: المكتوبات، المكتوب الأول، الطبقة الثانية من طبقات الحياة، ص. ٥)

بـه أو بظلّـه؛ وإنمـا يجتمـع بالخضـر عليه السلام من بلـغ مقـام الخضر، وماتت نفسه، وغلَب هواه، مثال ذلك ما ذُكِر في مناقب "يونس أَمْرَه" أنه كان يأتي إلى بيت شيخه "طَابْطُوقْ" بحطب مستقيم فحسب، فلما قيل له: "لم تتخير الحطب المستقيم دائمًا، أما في الغابة حطب معوج؟"، قال: "بيت طابطوق لا يدخله إلا المستقيم ولو كان حطبًا".

أجـل، بالاسـتقامة فـي السـير تبلـغ الهدف، فاسـتقم كالسـهم تبلـغ ما تريد.

وذات مرة اختبره طابطوق (وقد وقـع هذا لغيره مثل إبراهيم بن أدهم البلخـي، ومولانـا جلال الديـن الرومي، والشـمس التبريـزي): قدم أحد تلاميذه ذات يوم من عين يسـتقي منها الماء، فلما مر بيونس نخس رجليه ووركـه بحديـدة في دلوه وكأنه ينخس دابّـة فأدماه؛ فلم ينبس يونس ببنت شـفة، فلما بلـغ المنزل قال: "هذا أمر تركناه في قريتنا"، أي أعرضت منذ أن خرجت من قريتي عن التفكير في نفسي والضجر من إيذاء الناس لي، فلما رجـع التلميذ قال له الشيخ: ماذا قال؟

قال التلميذ: قال: "هذا أمر تركناه في قريتنا".

فقال الشـيخ: ما زالت نفسـه تشـغله، لم ينضـج بعد، فليجاهدها أكثر وأكثر.

وما أجمل قول يونس:

"على الدرويش أن يكون بلا يدٍ لمن ضربه
وبِلا لسان لمن شَتَمَه
وبلا قلب (حتى لا يغضب)
وإلا لن تستطيـع أن تكون درويشًا".

هكـذا فليكن المرشـد والداعية في هذا العصر، يكـفُّ كفَّه عمّن آذاه ولسانَه عمن شتمه، وعلى طالب القرآن أن لا يُثير شيءٌ حفيظتَه، فلا يستاء ولا يمتعض، وإلا فليس من طلاب القرآن، فإن شئت أن تجتمـع بالخضر عليه السلام فتَخَلَّ عن نفسك أولًا.

للنقشـبندية أربعة أسـس يعبـرون عنها هكذا: إن الطريقة النقشـبندية قائمة على ترك أربعة أشياء:

ترك الدنيا، وترك الآخرة، وترك النفس، ثم ترك الترك.

فوجـب فـي هذا الزمان تـركُ كل رغبة ولو كانـت الاجتماع بالخضر عليه السلام.

زواج الأقارب

سؤال: ما قولكم في دعوى لحاق الضرر من زواج الأقارب؟

الجواب: أولا: الأمراض المتوقعة من زواج الأقارب هي:

الأمراض الوراثية؛ وهي أمراض تنتقل من جيل إلى آخر وراثيًّا، وأكثر ما تظهر لدى أبناء أزواج بينهم قرابة قريبة؛ فغالبًا ما يتوارثون عن الجد المشترك أكثر من "جين" يحمل مرضًا وراثيًّا؛ وتنتقل الصفات الوراثية من مادة تسمى "*DNA*" تتجمع في وحدات تحمل معلومات منظمة لتطور الكائن الحي اسمها "الجينات".

ويُورِث نقص الإنزيمات بعض الأمراض الوراثية، فالتفاعلات الكيموحيويّة لا يتحقق منها شيء إلا بوجود الإنزيمات، علمًا أنّ المركبات والجزيئات كلّها لها تسلسل محدّد، فلا توجد مادة تتحول إلى منتج مباشرة، بل تمرّ بسلسلة متنوعة من المركبات، وتضاف مواد جديدة لكلّ مركب أو تُستخرج منه حتى يتكون المنتجُ المطلوب.

وثمة نحو ٢٨ مرضًا وراثيًّا تَبين أنها ناتجة عن نقص في الإنزيمات، ويُعتقد أنها وراء التخلف العقلي مثل المنغولية والفينايلكيتونوريا (*Phenylketonuria*)، وبعض أمراض الدم مثل فقر دم البحر الأبيض، وبعض الأمراض الوراثية مثل بِيْلة سِسْتِينِيّة (*Cystinuria*)، والجلاكتوسيميا (*Galactosemia*).

ثانيًا: لم يحض الإسلامُ على زواج الأقارب وإن أجازه في غير مَن يحرم نكاحُهم، أما الأقارب الذين يحرُم نكاحُهم فيشكّلون كَمًّا كبيرًا.

ليس الضرر في زواج الأقارب بل في أمراض الأبوين الوراثية التي تزداد مع الزواج وتظهر في الذرية؛ فلو أن سلالةً أو عشيرةً أو قبيلةً تحمل مرضًا، وتزوج منهم اثنان يحملان المرض نفسه يظهر هذا المرض؛ يعني أن الطفل يرث عن والديه مرضًا كان مكنونًا فيهما ولم يظهر؛ وهل يختلف الأمر إن كان الأزواج الذين يحملون المرض غرباءَ، هذا من الشرق وذاك من الغرب؟ لا فرق، فالخطر كل الخطر في اجتماع زوجين يحملان مرضًا تظهر أعراضُه على الطفل بقوّة، أيًّا كان المرض وحيثما كان من قرابة أو من غيرها.

فالذي على الأطباء إذًا هو منع زواجِ من يحملان مرضًا وراثيًّا يُتوقع ظهوره في الطفل، فالحيطة والحذر في زواج مشرقيّ بمغربيّة كالحذر في اثنين من قبيلة أو عشيرة واحدة، فقد يُصابان بالمرض نفسه فيُمنيان بالنتيجة السيئة نفسها؛ فمن الإفراط إذًا منعُ زواج غير المحرم نكاحهم من الأقارب مطلقًا، ومن قال بذلك مفترضًا أمرًا ما فإن تطور العلم سيُخالف ظنَّه.

والمؤسف أن من العلماء المتدينين أيضًا من تناول المسألة على عجل كما يفعل الفرَضيّون، ولم يُعنَ ألبتة بمناط الحكم الطبي، فقال: "حَرّم القرآن الكريم زواج الأقارب مطلقًا"، فناقض القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٥٠).

والتشريع العملي يثبت أن نبينا ﷺ وصحابته الكرام ﷺ لم يتحرجوا من زواج الأقارب غير اللائي حُرِّم نكاحهن في آية المحرمات، فتزوج ﷺ زينب بنت جحش ابنة عمته، وزوَّج ابنته الكريمة السيدة فاطمة من سيدنا علي ﷺ وهي من بنات عمومته... وأمثلته كثيرة.

وماذا في الزواج بين أبناء عشيرة سليمة البنية؟ فلعل هذا يحافظ على بنيتها المادّية والشخصية والروحية والصحية، ويُقال هذا هو سر سلامة الأجيال في داغستان حتى اليوم، هذا جعلهم بفضل الله وعنايته وقدَرِه أصحّ وأنشط وأطول عمرًا.

فمن يودّ أن يكون معافًى قويًّا نشيطًا في نسله وسلالته، فلا ريب أنه سيتخير أكثر العائلات صحة وسلامة، فإن كانت قبيلته كذلك فلم لا يتزوج منها؟

والخلاصة أن الخطر في الزاوج يكمن في أمراض قد يُصاب بها النسل سواء كان الزواج من الأقارب أو الأباعد، وأرى أن هذا هو ما ينبغي عدّه مناطًا للحكم، وإلا لقال قائل: كيف يُعالج القرآن الكريم حقير الأمور، ولا يعبأ بعظيمها؟! فهذا نقيض مقاصد القرآن الكريم كتابِ التوازن، فهو لم يُغفل ذكر أقلِّ شيء ينفع وأقلِّ شيء يضرّ ولو نقطة خمر حرّمها.

وقد عدّ القرآن الكريم المحرمات من النساء بجلاء عدًّا لا لبس فيه، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

(سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٢٣)؛ وقال في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٥٠).

وتشريع الزواج بضوابطه الصحية لا يقتضي إكراه الناس على الزواج، فللإنسان الزواج بغير المحرَّمات، إذ لا مانع، ولكن إن أثبت الكشف الطبيّ أن لهذا الزواج أضرارًا صحية، فهذا يقتضي منع الزواج، بل إن المنع آنذاك مصلحة وأمرٌ إنساني.

والله أعلم بالصواب.

الاتصال بالجن

سؤال: ما الجن؟ وكيف يحضَّر؟ وهل تجوز الاستعانة به في العلاج والعثور على المفقود؟ وما حكم الشعوذة؟ هل تُحظر ممارستها؟ وهل عُرف بها أحد من أهل العلم؟

الجواب: "الجن" مشتق من "جَنّ"، ومنه "الجَنّة"، و"الجِنّة"، أما لفظ "مجنون" فهو اسم مفعول، وكأن معناه "من مسّه الجنّ". والجِنّ لغةً: المستور؛ أي الخفيّ الذي لا يُرى، فهو ليس خفيًّا في ذاته بل هو خفي عن أعيننا أو عقولنا، وللجن دور فعال في الجنون والله أعلم.

ومسألة وجود الجنّ وكذا الروح والملائكة فيها جدل كبير منذ أمد مديد.

لقد شاهدهم الأنبياء وقابلهم الأصفياء والتقى بهم ملايين من أهل الكشف والتحقيق، فلا ضير في إنكار قلّة من الماديين لا يعترفون إلا بالمادة؛ بل إن إنكارهم مكابرة وعناد لا مسوّغ له، لا سيما أننا في عصر نسلّم فيه بوجود أشياء كثيرة لا نراها، وفي وقت غدت فيه مسألة الجن مثار اهتمام الملايين في أنحاء العالم كافّة، فشغلت عقول أهل العلم والمعرفة.

ما حجة من ينكر وجود الجن، ولماذا يُنكر ولا يستسيغ؟ فهل يا تُرى كل موجود يُرَى فاعترضوا لأنهم لا يرون الجن فحسب؟

نعلم أننا لا نرى إلا ٤-٥ بالمليون مما يُعرض على أنظارنا في عالم الشهادة؛ يعني أنَّ أمامنا مليون مخلوقٍ مِن أنواعٍ شتَّى ولا نستطيع

أن نرى منها إلا أربعًا أو خمسًا، ولا نستطيع أن نرى غيرها، ثم نحاول التعرف على جزء مما لا نراه بالمجهر، فنرى مثلًا ما في العالم المكبر بالتليسكوب، والمصغر بالميكرسكوب، وعوالم أخرى بأشعة إكس ونحوها؛ وقد تُكتشف لاحقًا أشياء وتتاح للبشر وسائل جديدة يُتعرف من خلالها على أشياء كهذه.

يقول أحد العلماء: "في كلِّ اكتشاف برهانٌ على وجودِ عالمٍ كبير لم يُكتشَف"؛ فعالمُ الشهادة إن هو إلا حجاب شفاف لعالم الغيب الذي لا يُرى، ووراء هذا الحجابِ الجنّ والملائكة والروحانيات، فقد يُطَّلَع على ما وراءه مباشرة أو بواسطة على قدر معرفتنا بذاك العالم.

وللمسألة وجه آخر: الجن كالروح، قانون ذو شعور، يشبه القوانين الكونية مثل قانون الجاذبية الذي به تدور الكرة الأرضية حول الشمس، فالأرض تدور دوران الإلكترونات، وعند دورانها حول الشمس تجذبها الشمس، وقانون الجذب المركزي هذا يقابله قانون الطرد المركزي، وكلها قوانين لها وجود نسبي واعتباري.

قد تقول: الشمس مثلًا كتلة والأرض كتلة، والكتلة الصغيرة تدورُ حول الكبيرة، ولا نرى شيئًا آخر، إذًا ليس هناك شيء آخر.

والجواب: لو لم يكن هناك شيء آخر، فما تفسيرُ هذا إذًا؟ والسؤال هو هو سواء قلتم إنها "جاذبية نيوتن" أو "نسبية أينشتاين".

وللنمو قانونٌ وجودُه نسبيٌّ واعتباريٌّ كسائر القوانين، فمثلًا عندما نحلل بذرة نلاحظ أن فيها عقدة حياتية، يتولّد منها الرّشَم، ثم ينمو فيصبح فسيلة فساقًا فشجرة، لكن لا بدَّ أن يكون النبت المتولِّدُ من جنسِ هذهِ البذرة، هذا هو قانون النمو، ويتعذر الإنبات دون وجود هذا القانون، فمثلًا لو غرسْنَا حجرًا لن نشهد أيَّ نمو أو تطوُّرٍ لانعدامِ هذا القانون.

هـذه قوانيـن وضعهـا الله ﷻ، والجـنّ والـروح والملائكـة ماهيتهـم تشـبه ماهية هـذه القوانين، والفرق: أنّ قانون الجاذبيـة بلا عقل ولا إرادة ولا شعور؛ أما الجنُّ والروحُ والملائكةُ فلهم عقل وإدراك وشعور، ولهم وجـودٌ خارجـيٌّ حقيقـيٌّ لا نسـبيٌّ واعتباريٌّ، ويعرِّف الأسـتاذ النُّورْسِـي الروحَ بأبلـغ أسـلوبٍ يمكن أن نطالعَهُ وأشـملِه وأوجـزِه، فيقول: "الروح قانون أمريّ ذو شعور"، فيكاد يستحيل أن تأتي بهذا الإيجاز في تفسير آية ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٨٥)، يقول:

> "الـروح قانـونٌ أمـريٌّ، حـيّ، ذو شـعور، نورانـيّ، ذو حقيقة جامعـة، مهيَّـأة للاصطبـاغ بالماهية الكلية الشـاملة، وقد أُلبِسـت وجـودًا خارجيًّـا، ولو أَلبَسَـت قـدرةُ الخالق القوانيـنَ الجارية في الأنـواع وجودًا خارجيًّا لأصبح كلٌّ منهـا روحًا، ولو خلـع الروحُ لباسَ الوجودِ الخارجيّ، واطَّرح الشعورَ، لأصبح قانونًا باقيًا"(٣٥).

وهذا التعريف وافٍ بكل ما هو من ماهية الروح.

الـروح قانـون كتلك القوانين التي نسـلم بوجودهـا جميعًا من أصغر العوالـم إلـى أكبرها، لكـن تمتاز الروح بالشـعور؛ دع عنـك هذا، فبعض العلماء لما اطلعوا على ما في النبات والشجر من استجابةٍ للمنبِّهات وردٍّ عليها، وإِلْفٍ للبيئة ادَّعَوا أنّ لها شعورًا.

وأريـد أن أقـدم لكم خلاصـةَ مقالٍ في هذا نشـرته إحدى المجلَّات، يقول الكاتب:

> "قناعتـي أن النباتـات كالقمح والشـعير لها شـعورٌ أيضًا، فلا يمكـن أن يصـدر عنهـا ما يصـدر من حركات وهي بـلا عقل ولا إدراك ولا شـعور؛ فالقمح مثلًا -وهو برعم- يشـقّ الأرض وكأنه يتأمّل ما حوله، فإن كانت الأجواء معتدلة والرطوبة كافية والشمس

(٣٥) بديع الزمان سعيد النُّورسي: الكلمات، الكلمة التاسعة والعشرون، المقصد الثاني، ص. ٥٩٧.

تغذيه بأشعّتها والتربة مناسبة والأحوال ملائمة لإخراج ساقين فَعَل؛ وقد يُخرج ثلاثَ سُوق ما دامت الأحوال ملائمة، وعندئذ نعلم أن الظروف كانت كافية للتغذية، وإلا أخرج واحدًا، وكأنه يقول: لا طاقة لي إلا بهذا. وإذا أُصيبَت الشجرةُ بآفة سرعان ما تطرح ثمارها لتنقذ نفسها، ولْيظنّ الفلاح ما شاء فالمصاب الشجرة لا الثمر، وكأن الشجرة تقول: اعذرونـي، لا قدرة لي على رعاية هذه الثمار؛ أنا مضطرة للعناية بنفسي والحال هذه، أنا بحاجة إلى أن أعتني بنفسي".

ولا قِبَلَ لنا الآن بإدراك هذه الأمور إدراكًا تامًّا، وسنعرف لاحقًا أنّ في النبات قانونًا يقوم بهذا كله، ويوجّه النباتات، وهذا كله من سنن الله ﷻ.

والشيء نفسُه يُقال في جزيء الحمض النووي الريبوزي منقوص الأوكسجين "*DNA*"، فهو يرسل شفرات يعمل الحمض النووي الريبوزي غير منقوص الأوكسجين "*RNA*" بمقتضاها وكأنه مهندس أو كيميائي.

ونلاحظ أنّ المخلوقات ذات الشعور هي الإنس والجنّ والملائكة فقط، أمّا الحيوانات فتسوقها حواسّها بالتوجيه الإلهي؛ وإن الله تعالى هو من وراء ما يصدر عنها من حركات شعورية.

أجل، إنّ الله تبارك وتعالى هو مَن يسوق كل شيء إلى قدر معلوم، ويوجهه وجهة خاصة، ولكن هناك قوانين أيضًا وضعها الله لا سبيل إلى إنكارها، قوانين مثيرة ومؤثرة حتى إن من يتحسسها عن بُعْد يكاد يسمّيها شعورًا، إذًا كيف ينكر أناسٌ وجودَ الجنّ وهم يرون ما يجري حولهم، حتى يكاد الإنسان يسمي من ينكرون الجن مجانين؛ فثمة آلاف القوانين، كلّ منها قانون يشبه الجنّ أتمّ الشبه في سريانه، وهذا يدلّ على أن وجود الجن ممكن عقلًا لا ريب فيه؛ فلِمَ لا يقرّون بوجود الجن كما

يقـرون بوجود التيار الإلكتروني، لكن إياك أن تظنّ أنّا نعرّف الجن بالتيار الالكتروني؛ يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ١٥/٥٥).

قد يعرّف بعض الناس الجنّ بالفوتونات والجُسيمات، والحقّ أنّ الجنّ أجسام لطيفة خُلقت من مارج من نار لا من فوتونات أو جسيمات، مكلفة كالإنسان، فلا موجب للقول بعدمها، ودعوى العدم مكابرة وخلاف المنطق.

والحـقّ أنّ القـول الفصـل في هذه المسـألة للقرآن الكريـم، لا تكاد الآيـات تذكـر خلـق الإنسـان إلا وتتبعـه بذكـر خلـق الجن، قـال تعالى: ﴿وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـانَ مِـنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْـنُونٍ ۞ وَالْجَـانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّـمُومِ﴾ (سُـورَةُ الحِجْر: ٢٦/١٥-٢٧) و﴿خَلَقَ الإِنْسَـانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (سُـورَةُ الرَّحْمَنِ: ١٤/٥٥-١٥)، فالجن خلقوا من نار هي عنصر من عناصر المادة يتطاير منها الشَّـرَر، ليسـت نارًا محرقة ولا هي بدخان أسـود؛ وهذا هـو ما ذكره القرآن الكريم عن ماهية الجـن. أمـا مـن لقي الجن مـن الأنبيـاء والصحابة الكرام وأهل الكشـف والتحقيـق فالغالـب أنهم رأوا الصور التي يتمثل بهـا الجنّ. أجل، رأوهم بالصور التي يتمثلون بها وتحدثوا إليهم وكانوا على اتصال بهم.

أجل، للجنّ بُعدٌ ما مركَّب من اجتماع جسم لطيف وروح ذي شعور، فيتمثلـون تبعًـا لخواصّ أبعادهم، ولا ننسـى أنّ اختـلاف التمثلات ناجمٌ عن اختلاف استعداد المرايا.

ورغـم أن الجنَّ أجسـام لطيفة مخلوقة مـن مارج من نار أي من عالم المادة إلا أنهم مثلنا ذوو شـعور وأرواح تسـيطر على المادّة، فلم يُصنَّفوا في الجمادات والكائنات الأخرى لأنهم ذوو شعور وإدراك، فهم مكلَّفون مثلنا بالإيمان بالله والعبادات دون أدنى فرق.

والجنُّ المخلوقُ من مارجٍ من نار يتمثل في صور شـتَّى، فكما يتمثّل لبعض الناس في عالم المعنى في الرؤيا قد يتمثّل لهم خارجَها ويشاركهم العالـم الـذي يعيشـونه، فمثـلًا: قـد يتمثَّـلُ لك فـي الرؤيا أحـدُ أقاربك، أو بعض المشـاهد من عالم البرزخ، وأيضًا قد يتمثل الجن ويظهر للناس رأي العين، لكنهم لا يرونه بهويته الحقيقية، وما يرونه إن هو إلا انعكاس لمرايا أرواح من يتمثلون لهم، وهذا الانعكاس يأتي على حسب استعداد المستقبِل.

وهذا يفسـر لِم كانت رؤية سـيدنا عمر بن الخطاب ﷺ للجن مختلفة عن سيدِنا أبي هريرة وسيدِنا أبي ذر ﷺ، فمثلًا: رأى سيدنا ابن مسعود ﷺ الجنَّ عند رسول الله ﷺ في صورة ظلّ، ورآهم سيدنا عمر ﷺ على صورة إنسان ضعيف نحيف، ورآهم أبو ذر ﷺ على صورة أخرى... وهذا يبرهن أن الجنّ يتمثلون في أشكال وصور شتّى.

أمـا مسـألة تحضيـر الجـن والأرواح، فكم مـن الأفـراد والمنظمات يشـتغلون بهذا الأمر بأسـماء وألقاب متنوعة، بل أغرق بعضهم وزعم أنه التقط صورًا للجن والأرواح.

فهـل يمكن تسـخير الجنّ والأرواح، وهل يمكـن أن نراهم؟ هذا أمر قابل للنقاش.

أما تسخير الجن فسيكون الاتصال بالجنّ في آخر الزمان على مستوى أعلى؛ وقد تُمكِّنُ التطورات العلمية والدراسات الحديثة مِنْ تَلقّي الأخبار عن طريق الجن في أمور من عالم الشهادة -لأنَّ الجن لا يعلمون الغيب- وإجراءِ اتصالات اسـتخباراتية من خلالهم، والاسـتفادة منهم في شـؤون تناسب طبعهم.

كم سمعنا وقرأنا عن مسألة مسّ الجنّ وحضورهم وتحضيرهم حتى إنها أصبحت من الأمور المسلَّم بها لدى الناس جميعًا، وإليكم حادثة وقعت لي في هذا الأمر: عُدتُ مريضًا أصيب بمسّ الجن، وأخذتُ معي كتابًا فيه أسماء أهل بدر ﷺ، وبينما أنا على أول سُلّم البيت إذ بي أسمع المريض يرفع عقيرته ويقول: إنهم يمنعونني أن أَقْبَل هذا الكتاب؛ فلما دخلتُ عليه وقدمتُ له الكتاب، ضمَّه إلى صدره، ورغم أنه لا يَعرف محتوياته صرخ قائلًا: "جاء سيدنا حمزة ﷺ ففررتم، أليس كذلك؟!"

وذكر أخٌ لنا عمل في مؤسسة خيرية أنه كان يشاهد أحيانًا في المبنى الذي يقيم فيه حَراكًا لبعض الأشياء ومحاولات لفتح الباب عنوة، وجولانًا هنا وهناك؛ وقد أقمتُ في هذا المكان بضع ساعات، فشاهدت حوادث كثيرة.

وحكى لي أخ متخصص في الطب النفسي واقعة حدثت له، قال: في مكان ما كانوا يحضّرون الجن ويستعملون فيه فنجانًا وكان الفنجان يتوجه إلى حروف معينة مكتوبة حوله على المنضدة فيجيب على أسئلتنا؛ وضعت يدي على الفنجان فلاحظت أنه يتحرك، وأنه يتجه نحو الحروف والأرقام التي على المنضدة، فحضر الشيطان عند تحضير الأرواح، فقلنا له: من أنت؟ فكتب: الشيطان، فأخذتنا الرجفة، لقد حضر -دون داع- عدو الإنسانية منذ آدم عليه السلام؛ فخطر ببالي شيء، قلتُ له:

هل لك أن تَسمعني وأنا أقرأ لك شيئًا؟

فقال: أسمعك.

فشرعت في القراءة من "رسائل النور" لبديع الزمان سعيد النُّورْسِي:

"هب أنّ ملايين المصابيح الكهربائية تتجول في مدينة عجيبة دون نفاد للوقود ولا انطفاء؛ ألا تُري بإعجاب وتقدير أن هناك مهندسًا حاذقًا، وكهربائيًّا بارعًا لمصنع الكهرباء ولتلك المصابيح؟" ما رأيك؟

-نعم، هذا صحيح.

فواصلت القراءة:

"فمصابيحُ النجوم تتدلّى من سقف قصر الأرض، وهي وفقًا لعلم الفلك أكبرُ من الكرة الأرضية نفسها بألوف المرات، وأسرعُ في مسيرها من الصاروخ بلا خلل في نظامها، ولا تصادم فيما بينها ألبتة ولا انطفاء ولا نفاد وقود؛ هذه المصابيح تشير بأصابع من نور إلى قدرة خالقها المطلقة، فشمسنا مثلًا -وهي أكبر بمليون مرة من كرتنا الأرضية، وأقدم منها بمليون سنة- ما هي إلاّ مصباح دائم، وموقد مستمرّ لدار ضيافة الرحمن؛ ويقتضي استمرار اتقادها واشتعالها وتسجيرها كلَّ يوم وجود وقود بقدر بحار الأرض، وفحم بقدر جبالها، وحطب أضعاف أضعاف مساحة الأرض؛ وإنما تُوقدُها وأمثالَها من النجوم بلا وقود ولا فحم ولا زيت دون انطفاء وتُسيِّرُها معًا بسرعة عظيمة دون اصطدام قدرةٌ لا نهاية لها وسلطنةٌ عظيمة لا حدود لها؛ فهذا الكون العظيم وما فيه من مصابيح مضيئة وقناديل متدلية يكشف بوضوح -وفقَ ما قرأتم أو ستقرؤون من قوانين علم الكهرباء-، عن سلطان هذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرّف منوِّره ومدبِّره البديع وصانعه الجليل بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحبِّبه إلى الخلق جميعًا بالتحميد والتسبيح والتقديس بل يسوقهم إلى عبادته سبحانه." فاعترض الفنجان على ذلك بشدة وكتب:

-كلا، كلا.

فقلت: والآن أصغ إليّ:

"لو أن صيدلية ضخمة في كل قارورة منها أدوية ومستحضرات حيوية وُضِعت فيها بموازين حساسة وبمقادير دقيقة؛ ألا تُثبت لنا أن وراءها صيدليًّا حكيمًا وكيميائيًّا ماهرًا؟"

- بلى.

"كذلك صيدلية الكرة الأرضية، فيها أكثر من أربعمائة ألف نوع من الأحياء من نبات وحيوان، وكلٌّ منها في الحقيقة بمنزلة قارورة مستحضرات كيميائية دقيقة، وقِنّينة مخاليط حيوية عجيبة؛ هذه الصيدلية الكبرى تكشف حتى للعميان عن صيدليّها الحكيم ذي الجلال، وتعرّف درجةُ كمالها وانتظامُها وعظمتُها بخالقها الكريم سبحانه، وذلك قياسًا على صيدلية السوق المذكورة، ووفقًا لما تقرؤون في قوانين علم الطب".
فعارضني ولم يدعني أسأل عن شيء، وقال:

- كلا، كلا.

كان يردّ بالموافقة على الأمثلة التي أقرؤها، فإذا قرأت الحقائق التي تشير إليها تلك الأمثلة اعترض ورفض. عرضت عليه أن أقرأ دعاء، قال: اقرأ.

وضعت يدي على الفنجان وأنا أقرأ دعاء من الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، فإذا به يتحرك بسرعة فائقة حتى إنني لم أستطع التحكم في أصبعي، ثم سقط الفنجان، وكتب بسرعة: دعك من هذا الهراء!

يقول الأستاذ النُّورْسِي في هذا الصدد:

"مثلما ثبت بالمشاهدة ثبوتًا قطعيًّا وجود أرواح خبيثة في أجساد بشرية في عالم البشر، تنجز وظيفة الشيطان وأعماله، ثبت

كذلك ثبوتًا قطعيًّا وجود أرواح خبيثة بلا أجساد في عالم الجنّ، فلو أنها أُلبست أجسادًا ماديةً لأصبحت كأولئك البشر الأشرار، وهكذا شياطين الإنس ممن هم على صورة بشر لو خرجوا عن أجسادهم لأصبحوا أبالسة الجنّ"[٣٦].

فلو لاحظنا ما هنا لوجدنا أن أقوال شياطين الإنس والجن وعباراتهم واحدة، لاحظوا الشبه الجليّ بين قول الجنيّ "دعك من هذا الهراء!" وقولِ بعض الناس.

يدعي يعض الناس أنهم يحضّرون الأرواح، والراجحُ في الواقع أن الذي يحضُر هو الجن، فيصبح من يقوم بهذا أضحوكة للجن والشياطين، وأظنّ أن هذا الأمر لو بُحِثَ بعمقٍ ونُظِر فيه بعناية أكثر فقد تظهر نتائج مفيدة؛ أمّا ما يفعله هؤلاء الآن فلا يعدو أن يكون أضحوكة وتخليطًا.

(٣٦) بديع الزمان سعيد النُّورسي: اللمعات، اللمعة الثالثة عشرة، الإشارة العاشرة، ص. ١١٣.

هلاك الأمم جماعات

سؤال: هلكت قديمًا بعضُ الأقوام جماعةً مثل قوم لوط وقوم نوح عليهما السلام، بسبب ما ارتكبوه من ذنوب معينة، فلم لا تهلك اليوم الأممُ جماعات رغم ما يُرتكب فيها من كل أنواع الذنوب؟

الجواب: إن سنة الله ﷻ جرت بتعذيبه العصاةَ والطغاةَ في الدنيا لتأديبهم علاوة على ما هو مقدَّرٌ من عذاب الآخرة. والحقُّ أن نوعية عقاب قوم لوط مرعبة وفيها عبرة، فَـ"سَدوم" و"عامورا" عند بحيرة لوط، أُرسل إليهما سيدنا لوط عليه السلام، ثم أخذتهم الصيحة، فهلكوا في صبيحة أحد الأيام، وفصّل القرآن الكريم خبر قوم لوط عليه السلام وخبائثهم وسوء عاقبتهم، وكذا خبر قوم نوح عليه السلام، فقد أرسل عليهم الطوفان؛ إذ أمطرت السماء، وتفجّرت الأرض عيونًا، فغمرت المياه جميع الأرض، وهلك العصاة ما عدا ثلة قليلة ركبت مع نوح عليه السلام السفينة، فنجَتْ بفضل الله ومنّتِه؛ وفي روايات ضعيفة أنهم نحو ٦٠-٧٠ شخصًا؛ توالد وتكاثر منهم البشر من جديد؛ ولندَع علماء الآثار يبحثون في الأمارات: كيف وأين وقعت هذه الحادثة؟ ولنبحث نحن الأمر في هذه الأمة المباركة:

أجل، أمة الرسول الكريم ﷺ (أعني أمة الدعوة بمن فيهم المسلمون وغيرهم) ترتكب اليوم كثيرًا من الذنوب، خصوصًا أن بعض بلدان العالم بلغ فيها الفسق والفجور ما لم يبلغه قوم سيدنا لوط أو سيدنا صالح أو سيدنا هود عليهم السلام.

ومـا يميزنا هـو أننا من أمة محمد ﷺ، وهـذه الخصوصية غدت لهذه الأمة كمانعة الصواعق؛ وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى آية قرآنية وبشرى نبوية أيدتا هذه الخصوصية:

يقـول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَـا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٣٣).

وننوه هنا بمنزلة الرسول الأكرم ﷺ التي لا تدانيها منزلة؛ فهذا المسيح عليه السلام يناجي ربه في أمر من طغى وضلّ مِن قومه: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/١١٨).

أمَّـا نبينـا ﷺ فيقول القرآن عنه وعن أمته: ﴿وَمَـا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِـمْ وَمَـا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْـتَغْفِرُونَ﴾ (سُـورَةُ الأَنْفَـالِ: ٨/٣٣)؛ أيْ لأمة محمـد ﷺ حجابـان مهمـان أو مانعـان للصواعق؛ فالعـذاب لا يعدوهما، والبلاء ينعدم تأثيرُه أمامهما:

أولهما: وجود النبي ﷺ في أمته بشـخصيته الحسـيّة أو المعنوية، أدام الله علينا هذه النعمة إلى يوم القيامة.

ثانيهما: وجود زمرة من القائمين بالدين والمسـتغفرين في أمة محمد ﷺ يحمون الحقّ والحقيقة؛ فمِن رحمة الله نرجو أن لا يعذبنا جماعةً.

أما بشـارة رسـول الله ﷺ ففـي الصحاح أن النبيَّ ﷺ دعـا ربه كثيرًا أن لا يُهلـك أمتـه، وأهمُّ ما دعا به كان في حجة الـوداع في عرفة والمزدلفة، ففي هذين المكانين المباركين دعا الله بما نُفِث في روعه، حتى إنه توسل إلـى ربـه وتضرع أن يتجاوز عن حقوق العباد، هل اسـتُجيب له أم لا، الله أعلم، ولا أملك أن أقول شيئًا في هذه المسألة.

أجل، لطالما كان النبي ﷺ يدعو ربه أن لا يهلك أمته، ويروي ذلك للصحابة الكرام قائلًا: "**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَلَمْ يُعْطِنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَقْتُلَ أُمَّتِي بِسَنَةِ جُوعٍ فَيَهْلِكُوا فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِي، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِي**"(٣٧).

أجل، لم يُستجب له ﷺ في هذه المسألة، لأنّ حلّها رهنٌ بإرادة أمته؛ نعم، كلّما ارتكبت الأمم الأخرى الجرائمَ والآثام نزلت بها الكوارث الأرضية والسماويّة، أمّا هذه الأمة فكلما كان منها ذلك جعل الله بأسهم بينهم، وتمزقت وحدتهم وكلمتهم، وأكلتهم النزاعات؛ فدعا النبي ﷺ ربه أن يرفع هذا عن أمته، فلم يُستجب له لحكمة يعلمها هو سبحانه.

وإليكم هذه المسألة في ضوء ما تشير إليه الآية الكريمة، وما ذكره أهل الكشف والتحقيق:

لو تحققت الخدمة الصادقة للدين وللقرآن المعجز البيان في مكان ما ولو يسيرًا، ولم يُخشَ على أهل الحق من الهزيمة، فلسوف يرفع الله بهؤلاء البلايا والمصائبَ كما تُدفع الصواعق بالموانع. أجل، إن وُجِد عشرة رجال مخلصين يخدمون الدين على هذه الشاكلة فسيرفع الله بهم البلايا، أما إذا كان أهل الحق مغلوبين فسيهزّهم الله تعالى.

والله أعلم بالصواب.

(٣٧) المسند لأحمد بن حنبل، ٤٢٢/٣٦.

انتقال الإنسان إلى قارة أمريكا

سؤال: كيف وصل الإنسان إلى قارة أمريكا؟

الجواب: تفوح من هذا السؤال رائحة الجدل والمغالطة، السؤال يبدو بسيطًا لكن الهدف من طرحه ليس كذلك، فهم يحاولون أن يقولوا: "أنتم تقولون: الناس جميعًا من نسل آدم وحواء ﷺ، فكيف جاء هؤلاء وهم من أب واحد وأمّ واحدة إلى هذه القارة الجديدة؟ فلو كان الأمر كما تقولون لما استطاع أحد الوصولَ إليها، والنتيجة أن هذا دليل على نشوء كل إنسان في منطقته الخاصة به نشوءًا ذاتيًّا، أي بالتطور".

هكذا يكمن مثل هذا الفكر الإلحادي تحت سؤال كهذا يبدو بسيطًا للوهلة الأولى؛ أجل، نقول: الناس جميعًا من نسل آدم وحواء ﷺ، ولسنا نحن من يقول هذا، بل إن الله هو من يقوله ﷻ؛ فنحن نؤمن به حقًّا ويقينًا.

يحاول العلماء الماديون منذ سنوات بنظرياتٍ كثيرة دحْضَ ما في القرآن الكريم عن الخلق، لكننا رأينا -كما فصّلنا في موضعه[٣٨]- بأن هذه النظريات المكرّرة تهافتت تِباعًا، وثبت علميًّا أن ما ذكره القرآن هو الصحيح، ولن ندخل في هذا الموضوع الآن، بل نُحيل من يرغب في ذلك إلى ما قلناه بالتفصيل في هذا الصدد، ونكتفي بأن نقول: الناس

(٣٨) لما رأى الأستاذ فتح الله كولن الحاجة ماسة للوقوف على ماهية "نظرية التطور" ألقى فضيلته محاضرة تدور حول هذه النظرية موضحًا أنها تستند على أسس عفنة واهية كما أنها مليئة بالمغالطات، ثم صيغت هذه المحاضرة على شكل كتاب تُرجم فيما بعد إلى بعض اللغات ومنها اللغة العربية ونشرته مؤسسة دار النيل باسم "حقيقة الخلق ونظرية التطور".

جميعًا هم من نسل آدم وحواء ﷺ، وتُمنَى النظرية الداروينية التي ادعت العكس بسيل جديد من نبال المعارضة العلمية، ونذكِّر أن الداروينية ليست إلا نظرية فحسب.

قد يرى بعضهم أننا نحاول حشد أدلة أكثر مما ينبغي لدحض هذه النظرية المبنية على أسس واهية جدًّا، لكننا معذورون في هذا؛ فللفكر الإلحادي الخبيث الكامن فيها خطر يسوّغ قيامنا لحشد الأدلة بل يضطرنا إليه.

والمُشاهَد أن نظرية التطور وُلدت جثة هامدة، لم تسر فيها الحياة قط، وتعرضت حتى الآن لسهام المئات بل الآلاف من العلماء المؤمنين حتى أثخنت بالجراح، وحُكم عليها بالإعدام مئات المرات؛ فتفنيدنا لها سببه محاولة بعض أهل الضلالة إحياءها وخداع بعض الشباب بها.

وبصدد هذا الموضوع نقول: تعرضت الأرض مرات لتغيرات كبيرة، فالجيولوجيون يقولون مثلًا: كان البحر الأبيض المتوسط بَرًّا قبل عشرة آلاف سنة، وكان كثير من البر اليوم بحارًا آنذاك؛ فإن صحّ ما يقولونه، فمعنى هذا أن حضارة ودولًا قامت آنذاك في أرض البحر الأبيض المتوسط؛ ومثل هذا يقال في قارة أمريكا وأستراليا، فيحتمل أن هاتين القارتين كانتا متّصلتين بالقارات الأخرى، وأن المحيطات التي تفصلها الآن كانت برًّا، وهذا يبين أن انتقال الإنسان إلى قارة أمريكا وغيرها من القارات كان ممكنًا ميسورًا.

وتاريخ الإنسانية أقدم مما يُتصور، فمنذ مدة نُشرت مقالات حول العثور على هيكل عظمي لإنسان عاش قبل ٢٧٠ مليون سنة، أما عمر أقدم هيكل عظمي للقرد تم العثور عليه حتى الآن فيرجع إلى ١٢٠ مليون سنة،

أي بينهما فرق كبير جدًّا، ونلاحظ أيضًا أن بعض الأحياء المائية التي تعيش في أعماق البحار كالطحالب باقيةٌ بحالها كما كانت قبل ٥٠٠ مليون سنة، وخلية النحل هي هي قبل ٥٠٠ مليون سنة.

ويشير العلماء بهذه الأرقام إلى أن نشأة الوجود وتاريخ الخليقة أقدم مما كان يُتصور سابقًا.

ولا يجوز الحكم على عهود تاريخية أقدم من العهود التي عرفها علماء التاريخ، فعلى الأقل يدخل ما ذكرناه في دائرة الاحتمالات التي يجب إجراء التقييم على ضوئها، فأصحاب النظرية المعارضة لنظريتنا لا دليل يُعتدّ به عندهم لنقض نظريتنا.

عندما التقى أهالي "مايا" بالفرنسيين قالوا لهم: في تاريخنا القديم المكتوب أن أرضنا كانت متصلة قديمًا ببَرّ بلد آخر، وأن طوفانًا أتى على ذلك البلد فأغرقه في البحر؛ وبقينا في الأعالي.

وفي تاريخ الهند إشارة مماثلة لهذا، فهم يذكرون حدوث طوفان كبير انفصل إثره البر المجاور لهم، وفصل بينهما المحيط؛ فقد تكون قارة أستراليا هي ذاك البر؛ فرحيل الإنسان إلى قارة أمريكا أو أستراليا لم يكن عسيرًا أو مستحيلًا كما يدّعون.

وأخيرًا لو فرضنا أنّا اعتمدنا برّ الأرض كما هو موجود الآن، فالوصول إلى تلك القارات ليس عسيرًا، فمضيق "بيرنغ (*Bering*)" كثيرًا ما تتجمد مياهه، فيمكن العبور من روسيا إلى أمريكا، وهذه المسافات يمكن قطعها حتى بالسفن البدائية، ونحن نعرف أن الرحّالة المسلمين استطاعوا الوصول إلى أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، أي قبل وجود

السفن الحديثة، وشحنوا حتى جيادهم على سفنهم، واكتشفوا أمريكا؛ وهذه الحقيقة يشير إليها كثير من الباحثين؛ فانتقال الناس إلى أمريكا وتكاثرهم هناك لم يكن عملية مستحيلة أو حادثة غريبة خارقة للعادة، بل هي حادثة معتادة.

أما تفنيد الداروينية، فقيل الكثير جوابًا على الأسئلة المثارة حولها، وطبعت كتب وبحوث علمية كثيرة تدحضها، فلتراجع.

أسماء اللّه تعالى وصفاته

سؤال: ما الفرق بين أسماء الله تعالى وصفاته؟

الجواب: لو لم يُسمِّنا آباؤنا وأمّهاتنا وسُمّينا حسب ما سنكتسبه من مهارات لاحقًا، لَكان اسم هذا خَبّازًا، وذاك نجّارًا... إلخ؛ أي لدلَّت الأسماء على مهارات ذويها؛ وقد تكون هذه الأسماء بصيغ المبالغة، فمن يستر سترًا معتادًا اسمه "ساتر"، ومن يستر سترًا كاملًا اسمه "ستّار"، ومن يحمد اسمه "حامد"، ومن يحمد حقَّ الحمد اسمه "حمّاد".

بيد أننا لا نسمّى بأسمائنا وفق مهاراتنا المستقبلية، بل هي رغبات آبائنا وأمهاتنا، حتى إننا قد نُسمّى بأسماء لا تناسبنا ولا تلائمنا. قد يبدو هذا التشبيه سمجًا مبتذلًا، لكن هذا منهج يُستخدم في التعبير الميسَّر لتوضيح الحقائق المجردة وتيسير فهمها.

أما أسماء الله الحسنى فإنها أسماء تَعلَّمناها من رُسُلِ صاحب هذه الأسماء الذي تُشاهَد آثارُه في الكون، فمثلًا جمال الكون بيّن جليّ يحيط بالكون كله، ويعانق بعضه بعضًا عناق ألوان قوس الله، ونشاهده في السهول والبساتين والجبال والأزهار والعيون والحواجب؛ والشعراء إنما ترنَّموا ولا يزالون بصورة هذا الجمال منذ آلاف السنين، لكنهم لم يعبّروا إلا عن جزء صغير مما يمكن أن يُذكَر ويقال عن الجمال؛ فهذا الجمال الذي أسرنا وعجزنا عن التعبير عنه حق التعبير يستند إلى اسم الله تعالى "الجميل".

ونرى الرزق يقسم بين الكائنات بنظام دقيق، فمن الخلية إلى وحيد القرن كلّ يُغذَّى بما يناسبه من رزق، ورزق الملائكة العبادةُ والذكر

والتسبيح، ورزق الإنسان اللحمُ، ورزق الجن العظمُ؛ ومرجع كل هذه الأفعال المتعلقة بالرزق هو اسم "الرزاق" قطعًا.

ولو لم نكن نعلم أن "الجميل" و"الرزاق" من أسماء الله تعالى، وشاهدنا أفعاله وآثاره لَدعوناه وقلنا: "يا جميل" "يا رزاق". ومثل هذا يجري في أسمائه الحسنى الأخرى؛ فالله تعالى أظهر آثار أسمائه الحسنى لنا ثم علمنا أنه سمّى نفسه بها لكي لا نخطئ في تسميته، وأسماؤه سبحانه توقيفية، أي لا نستطيع تسميته بأسماء لم تثبت بنصّ.

والأسماء الإلهية مرجعها إلى الصفات الإلهية؛ وبناءً على المثال السابق عرفنا أنه لا يمكن تسمية من لا يخبز "خبّازًا"، ولا من لا يملك مهارة في النِّجارة "نجّارًا"؛ فاسم "الجميل" الذي نعرفه من خلال الجماليات التي نقشها الله على كل شيء، والذي يشاهده من يشاهده، يستند إلى صفة "الجمال" التي هي منبع كل الجماليات.

وهكذا الأسماء كلها، فهي ترجع إلى صفات معيّنة، و"الصفات" مَنشؤها "الشؤون"؛ (والشؤون مثل القابليات والاستعدادات بالنسبة للإنسان، لكن هاتين الكلمتين لا يجوز استعمالهما في حق الله ﷻ). إذًا فالأفعال الربانية تستند إلى الأسماء الحسنى، والأسماء إلى الصفات السبحانية، والصفات إلى الشؤون الإلهية، والشؤون إلى ذات الله ﷻ؛ ونقف هنا لنقول: "ما عرفناك حقّ معرفتك يا معروف" أو "العجزُ عن درك الإدراك إدراك"، نقول هذا وننحني بكل أدَب وخشوع.

هو ﷻ موجود، كل شيء فينا يشير إلى وجوده، لكننا نعجز عن إدراكه، ليس هناك أظهر ولا أبْيَن منه، ومع هذا هو الظاهر الباطن.

حسبنا هذه النظرة السطحية حول الفرق بين أسمائه وصفاته ﷻ، ونفصّل فيه لاحقًا.

أولو العزم من الرسل

سؤال: من هم أولو العزم من الرسل؟ ولِمَ خُصّوا بهذا اللقب؟

الجواب: كلمة "أولو" لغةً بمعنى "أصحاب"، جمعٌ شاذ لكلمة "ذو" بمعنى "صاحب"؛ أما كلمة العزم فلها معانٍ منها: الحزم والإصرار والثبات، فإذا ما أضيفت إليها كلمة "أولو" صار معناها "أصحاب الإصرار والحزم"؛ وسأستطرد إلى آية تداعى ذكرُها عند ذكر هذه الكلمة، يقول الله تعالى عن سيدنا آدم عليه السلام: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ (سُورَةُ طَهَ: ١١٥/٢٠). قال بعض المفسرين: ولم نجد له عزمًا على ترك المعصية؛ لكني شخصيًّا لا أستطيع أن أقبل هذا التفسير في حقّ نبيّ من الأنبياء، ولا يطمئن إليه قلبي، والمعنى الأمثل عندي: كان ما كان من آدم دون قصد منه، لكنَّه لم يكن عازمًا أو مخططًا من قبل لفعل ما فعل؛ فمعنى ﴿**وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ أي إصرارًا على ارتكاب ما كان منه.

أما أولو العزم من الرسل فهم من ذُكروا في الآية: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ (سورة الأَحْزَابِ: ٧/٣٣)؛ أي هم سيد السادات سيدنا محمد ﷺ المشار إليه بكاف الخطاب "منك" وسيدنا نوح وسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهم السلام.

وكل نبي له خصوصية، غير أن هؤلاء الخمسة كل شيء في سُوقهم غالٍ وثمين؛ فكم من ابتلاءات شاقة عسيرة اجتازوها، وإذا ما أمعنّا النظر بدقة فيما ذكره القرآن من قصصهم فسندرك بوضوح لِمَ أُطلق عليهم

لقب "أولو العزم"؛ فرسول الله ﷺ رغم ما لقي من أذى المشركين وعنتهم لم ينبس فمه الشريف ببنت شفة توحي بالشكوى أو السخط من القَدَر؛ ثم انتصرَ يوم بدر، وتحمل عبء ما حدث يوم أُحُد كأنه احتمل جبل أُحُد، ولما قفل راجعًا من أحد لم تبدر منه أي كلمة توحي بتوبيخ الصحابة الذين تسببوا في الهزيمة لقصورهم عن استيعاب الدقة في امتثال الأوامر؛ وكم أحزنه فقده لعمه حمزة ﷺ يومئذ، لكنه كتم ما آلمه وأهمّه في قلبه في هذا الموضع أيضًا.

ليس له همّ سوى هداية الناس، كان حريصًا أشد الحرص على ذلك حتى كاد يُهلك نفسه، فذكره القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (سورة الْكَهْفِ: ٦/١٨)، وبقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٣/٢٦)، ففي هذه الصورة البيانية إشارة إلى مدى حرص النبي ﷺ على هداية الناس كافة.

قضى ﷺ حياته في هذا الأفق؛ فما وَجد الضيقُ أو الجزع أو الضجر إليه سبيلًا، بل ثبت ثبات الجبال في وجه كل ما نزل به؛ ظل سنين وهو يغزل غزلًا ما، ثم قضى القدَر بنقض هذا النسيج، فلم يضجر ولم يسأم، بل أخذ ينسج من جديد دون توقف.

والحقّ أنَّ هذه الخصوصيةَ عامّةٌ للأنبياء جميعًا، ولكن كما أنهم متفاوتون في الدرجة فكذا فيما ينزل بهم من مصائب وابتلاءات، وأممُهم متفاوتة كذلك.

ويا له من مشهد عظيم ذي مغزى عرضَهُ رسولُ الله ﷺ في هذا المقام! كُشف له حجاب الغيب فرأى جميع الأنبياء... وهاكم الحديث من فمه

الشريف ﷺ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ"(٣٩).

ولنتأمل أن من الأنبياء مَن اجتهد وجاهد طول عمره في سبيل الدعوة، ورغم ذلك التحق بالرفيق الأعلى ولم يجد من يفقه عنه، ومنهم من كانت أمته بضعة أفراد؛ وأظنّ أنّنا نُمنَى بالفشل إن ابتُلينا بمثل هذا الموقف.

هذا إبراهيم عليه السلام غُلّت يداه ليُرمى بالمنجنيق، ويُطرح في نار مستعرة يشبّ لهبها كأمواج البحر المحيط؛ فاستأذن الملَكُ ليكون ظهيرًا له عليه السلام، لكنه اعتصم بالله وما نقص توكله به مثقال ذرة، وقال: "حسبي الله ونعم الوكيل".

وذاك سيدنا نوح عليه السلام، ما ركب معه في السفينة إلا حفنة من الناس بعد مكابدة ومعاناة دامت ردحًا طويلًا من الزمن، بل لم يستطع أن يصحب ولده معه، وما أشده من مشهد وأصعبه على أب يحمل روح نبي! يتعذر بل يستحيل أن نفهم هذا الشعور.

والمسيح عليه السلام حُكِم عليه بالموت وهو في سن يُعدّ مبكرًا، ولو أطلّ برأسه لرأى سيوفًا مسلولة تأهبت لتنقضّ عليه وتمزقه، لكنه مع ذلك صمد وثبت، ولم يتزعزع ولو لحظة.

أجل، إن هؤلاء مختارون مصطفون من بين من حظوا بسرّ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٧٥)؛

(٣٩) صحيح البخاري، الطب، ١٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٣٧٤ (واللفظ لمسلم).

فهم قِشْطة اللبن في قدح الوجود الذي يغلي برحمة الله، وبهذا الشكل تجلت فيهم قدرة الله وإرادته؛ ومن أوصافهم التي لا تنفك عنهم التوكلُ العميق والعزم الذي لا يعرف اللين والسآمة؛ لذا أطلق عليهم "أولو العزم"، ولكل نبي وولي عزمٌ خاصّ، كل حسب درجته ومرتبته، إلا أن هذه السمة بلغت أوجها لدى هؤلاء.

أهل التصوف وقِدَم العالم

سؤال: يقولون: حذو الصوفيةُ حذو الفلاسفة الماديين في مسألة قِدَم العالم، فكيف يجتمع ما قالوه والعقيدة الإسلامية؟

الجواب: الصوفية ليسوا قائلين بقدم العالم، ونسبةُ هذا إليهم جميعًا خطأ بحت. أجل، فيهم من قال بـ"وحدة الوجود"، بل منهم من شطّ في فرضيات "وحدة الموجود"، لكن هذا لا يعني أنهم قالوا بقدم العالم، وإن بدا أنهم يقولون بهذا في الظاهر إلا أن الواقع خلاف ذلك، بل إنه ليؤكد أنهم لم يقولوا بذلك.

وقبل كل شيء لا بدّ أن نعرف مَن هم المتصوفة ومن هم الصوفية؟

المتصوفة هم من يشتغلون بنظريات التصوف؛ أما الصوفيّة فهم أرباب الحقيقة حقًّا في هذا الميدان، يُعنَون بالحال أكثر، ويستندون في منهجهم على بعض الأمور، منها ما شاع بينهم واستقرّ أن سيدنا أبا بكر ﷺ أخذ عن النبي ﷺ يوم الهجرة في غار ثور دروسًا معنويةً، وأنّ سيدنا عليًّا ﷺ أخذ عن النبي ﷺ درسًا خاصًّا في مجالس خاصّة؛ ورغم أنه يصعب أن يقول بهذا من اهتدى بهدي الكتاب والسنة والإجماع، فإن اعتقادهم بهذا تامّ لا يعتريه شكّ، "من لم يذُق لم يعرف".

ومن الناس من راوده الشك والريب في هذا يومئذ كما يحدث اليوم، فسألوا سيدنا عليًّا ﷺ: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: "لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة"، قال السائل: وما في الصحيفة؟ قال:

"العَقْلُ (أي الدِّيَة)، وفَكاك الأسير، وأن لا يُقتل مسلمٌ بكافر"(٤٠)؛ ونحن لا نعلم أمرًا آخر اختُصّ به عليٌّ ﷺ دون غيره بنقله عن رسول الله ﷺ. أما الأحاديث الخاصّة بين رسول الله ﷺ وأبي بكر ﷺ في غار ثور فصعبٌ إثباتها.

أجل، لنا أن نقول: ليس في الكتاب والسنة وآثار السلف ما يدل أنّ سيدنا رسول الله ﷺ خصّ سيدنا أبا بكر ﷺ بعلم خفي لا يعلمه غيره. وأفضل ما يمكن قوله في هذا الموضوع: إن أبا بكر ﷺ تحت وصاية من هو رسول رب العالمين والمرشد الأكبر للناس أجمعين محمد ﷺ، بهذا نتجنب التكلف ويكون قولنا أصدق وأخلص.

لرسولِنا الأكرم ﷺ وظائف كثيرة منها إعداد بيئة تُقام فيها الشعائر بحُرّية وطمأنينة، وتزويد المسلمين بمقومات مادية ومعنويّة تجعلهم حكامًا في الأرض لا محكومين؛ وهذا يقتضي أن تسري الحياة القلبية والروحية في كل شيء، فأقام النبيّ ﷺ الدينَ في حياته من فرائضه إلى آدابه، ودعا الناس إلى إقامته، وكان يبحثُ في كلِّ شيءٍ عمّا يحبه الله ويرضاه، وكان ﷺ يواظب في حياته على أدعيةٍ وأذكارٍ كثيرة ربما لا نقرأ سوى عُشرها، وليتنا جميعًا نقرأ؛ ومنها مثلًا "**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"؛ مائة مرة في كلّ غداةٍ(٤١)؛ أي ما نقوم به غيضٌ من فيضِ ما قام به ﷺ. إن الولاية والصوفية الحقيقية طريقُها القيامُ بإخلاصٍ بمَا كان النبي ﷺ يقوم به، والله نسأل أن يَسدّ عنّا ما فعلناه مسدّ ما أنيط بنا، فإننا حتى وإن قمنا بوظيفة العبودية حقّ القيام لما وفّينا شكر نعمة ربّنا وفضل رسولنا ﷺ.

(٤٠) صحيح البخاري، الجهاد، ١٧١.

(٤١) صحيح البخاري، بدء الخلق، ١١؛ صحيح مسلم، الذكر، ٢٨.

روى الطُّفَيْلُ بْنُ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ؛ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ"**؛ (قَالَ أُبَيٌّ) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاتِي؟ فَقَالَ: **"مَا شِئْتَ"**، قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: **"مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"**؛ قُلْتُ: النِّصْفَ؟ قَالَ: **"مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"**؛ قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: **"مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"**؛ قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: **"إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ"**(٤٢).

وجواب رسول الله ﷺ معناه: بالِغ في أداء العبادات ما استطعتَ. أجل، علينا أن نأخذ من الدين قدر ما نستطيع حمله، فالدين يسر، أي إن التشريع يسير لا يعجز أحد عن القيام به، ولن يُشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلَبَه أي عجز عن أن يقوم به.

وليس معنى هذا أن للمكلّف أن يدع الفرائض، بل إنه لو ترك السنن المؤكدة لَعُوتِب؛ وله أن يزيد من النوافل ما يستطيع، وإن عزم على الاستمرار فيها فُتحت له معارجُ محبة الله والقربِ منه ﷻ، وهذا هو "السرّ المحمدي" الذي ينجم عنه كشف القلوب؛ ومن يسلك هذا الطريق يكن -إن شاء الله- مؤمنًا حقًّا، وتقيًّا حقًّا، وصوفيًّا حقيقيًّا، ومؤهَّلًا للولاية.

وبعد قرن أو قرنين عرضت لهذا المسلك النبويّ عقبات، فقد أصبح الناس يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيَهم، ويقرؤون أحاديث رسول الله ﷺ ولا صدى في قلوبهم لما يقرؤونه، ولا تجد لكلمات ذوي البيان الساحر أثرًا في القلوب؛ فظهر مجددون أرادوا أن يعودوا بالمسلمين إلى أصلهم، ويعيدوا ما كان عليه الأولون من عشق وحماس، ومنهم

(٤٢) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٢٣.

الإمام أبو حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وعمر بن عبد العزيز؛ كان هؤلاء الأفاضل مجدِّدين في ساحات شتى، فإنهم لما رأوا جفاف المشاعر بل موتها لدى الناس اجتهدوا ليجدوا حلًّا لهذا، فأنشؤوا المدارس والمجالس للعودة بالناس إلى السنة، ودعَوا الناس إلى هذه المؤسسات، وأخذوا يربّون كل فرد حسب مستواه وإدراكه واستيعابه، فكانوا بحق رجالًا مخلصين متفانين، لا ترى فيهم عوجًا ولا زيغًا؛ فما لبثت كلماتهم أن فعلت فعلها في الناس، حتى إن قناديل المساجد لتكاد ترقص طربًا لحديثهم؛ وبلغوا من القوة أنهم ما حلّوا أرضًا إلا غدت كأنها ساحة مغناطيسية... ومِن هؤلاء الزهّاد إبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، والجنيد البغدادي، وبِشْر الحافي، وأحمد بن حنبل... تحلّق الناس حول هؤلاء الرجال الأقوياء، فأخذوا عنهم الأوراد والأذكار التي واظب عليها سيدنا رسول الله ﷺ.

بفضل هؤلاء الفضلاء عادت القلوب تتوجّه إلى الله، وتحلّق الناس حولهم كما يتحلق المريدون، وتتابعت نشأة المدارس الصوفية، ثم ظهرت طرق صوفية كثيرة أنارت ربوع العالم يومئذ، ومنها الطريقة النقشبندية والقادرية والرفاعية والمولوية.

ومنهم مرشدون كالإمام الرباني اتخذوا من اتباع السنة الشريفة قاعدة ومرشدًا وهاديًا، وأرشدوا الناس لاتباعها، وقالوا: "لا يصل إلى بَرِّ الأمان إلا من اهتدى بالسنة السَّنيَّة، وإلا انقلبت الموازين التي حددها الشرع بقدر انقطاع علاقة الإنسان بالعالم الخارجي". أجل، الحياة في برزخ التصوف تُغيِّر الإنسان وتُحوِّل أبعاده البشرية، وهذا جعل طائفة يستخفّون بأصول الدين، وانقلب التوازن الذي أقره الشرع الحنيف، ولما انعدم التوازن عند كثيرين آثَر بعضُهم الرهبانيةَ، وبعضُهم عزفوا عن الزواج، وبعضهم اعتزلوا

الناس وانزووا في عوالمهم الداخلية، وشُغلوا بالحياة الروحية فحسب، وقال قائلهم: "حسبي قلبي"، وجاء يوم أعرض فيه هؤلاء عن المشاعر الحسيّة كافّة، وأنكروا كل ما له صلة بالجسم.

وتتلاشى الدنيا وما فيها في عين هؤلاء وهم في حالة وجد واستغراق، ويضمحل كلّ شيء سوى تجليات أسماء الله وصفاته، فهي الظاهرة اللامعة، فيشرعون يقولون: "لا موجود إلا الله"؛ والواقع أن أهل السنة والجماعة يُثبِتون وجود الأشياء ويقولون: "حقائق الأشياء ثابتة"؛ فالله موجود، والمخلوق أيضًا موجود؛ ولا بأس بهذا عند صاحب الوجد، لأن الأشياء قائمة به ﷻ، فهي موجودة لأنه موجود.

هذه عقيدة أهل السنة التي قرروها وقطعوا بثبوتها، ورغم هذا نجد الولي في حالة الصحو يطبّق ما قرره في حالتي الوجد والاستغراق، فمثلًا جاء في عدة كتب منها "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكية" للإمام محيي الدين بن عربي، و"هياكل النور" للإمام السهروردي ما معناه: "أن كل شيء خيال، ولا موجود إلا هو ﷻ"؛ لكن حذار من الخلط بين آراء هؤلاء الأجلّاء وآراء القائلين بوحدة الموجود؛ أجل، هؤلاء هم أصحاب "وحدة الوجود"، لا "وحدة الموجود"؛ فوحدة الموجود نظرية يمكن استغلالها، مبنية على أساس "الروح الكلية"؛ ابتدعها "أبيقور" وطوّرها "هيجل"، وصنعت لها المادية التاريخية صورة مغايرة.

أما وحدة الوجود فعبارة عن حال واستغراق، فلا صلة لها بالمادية ألبتة، بل هي بخلافها، فهي إنكار ونفي للموجودات لإثبات وجود الله؛ وخطأها هو حكمها على الأشياء بالشعور والمشاهدة وإهمالُ موازين السنة.

ربما تسألون: لماذا اقترفوا هذا الخطأ؟ أجل، لكم أن تقولوا: "إن محيي الدين بن عربي لطالما كتب عن مواجيده واستغراقاته، فليته

في الصحو واليقظة صحَّح ما ذكره في حالة الاستغراق، وهذه الأفكار قد يلتبس أمرُها، فلِمَ أبقى عليها كما هي؟"

أرى أن علينا أولًا أن نحتاط أكثر عند الحديث عن رجال عظام لا نستطيع أن نقدرهم قدرهم.

أجل، يقف المرء أمام هذه الآراء والأقوال المنافية لروح الشريعة ليقول: "أيها الإمام، ليتك حقّقتَ وصحّحتَ هذه الأقوال"، والحقّ أنهم يرون العالم الحقيقي هو العالم الذي يعيشون فيه بسكرهم واستغراقاتهم، فإن كانوا يَعدّون العودة إلى عالمنا أي الانفصالَ عن عالمهم عودةً إلى النوم فماذا يحقّقون ويصحّحون ولماذا؟

هؤلاء العظماء أمثال محيي الدين بن عربي عندما تأتيهم تجليات ربانية في خلوتهم ينجذبون إليها، ويرون ذلك العالم هو العالم الحقيقي، فتفكر عقولهم وتسطِّر أقلامهم بموازينِ ومقاييسِ ذلك العالم الذي هو حقيقةٌ عندهم حلمٌ عندنا، ثم يصوغون ما كتبوه، ولا يحاولون التوفيق بين ما كتبوه وبين خصائص عالمنا هذا، ولو أنهم علموا أنّ هذا العالم هو العالم الحقيقي لصحّحوا أخطاءهم التي ارتكبوها وهم في ذلك العالم، لكنهم لمّا لم يفعلوا دلّ ذلك أنهم لم ينظروا إلى عالمنا على أنه العالم الحقيقي ألبتة.

وبعد هذا القدر من الإيجاز في هذه المسألة نقول: لا يمكن أن نطلق على الصوفية أنّهم "ماديّون"، بل نقيضه صحيح، فالفروقُ شاسعة بين الماديين والقائلين بوحدة الوجود؛ فالماديون لا يعترفون إلا بالمادة والكائنات وينكرون وجود الله، ويقولون: "لا وجود إلا للمادة والذرّة، وكلّ جزء أو جُزَيْء من الذرَّة له شعورٌ يتحرك به"؛ أما القائلون بوحدة الوجود فينفون وجود الموجودات ليثبتوا وجود الله تعالى، ويقولون:

"كل شيء قائم به، وكل ما عداه فانٍ، فلنحكم إذًا بفناء كلّ ما عداه، حتى لا يخِلّوا بطمأنينتنا ويعكروا صفونا".

ولستُ أدري كيف يُعدُّ الاثنانِ واحدًا رغمَ كلِّ هذا التضادِ بينهما.

ومن النقاد من يقول: دُسّت في مؤلفات مولانا جلال الدين الرومي أفكار بعض الحلوليين الغربيين، ويزعم أن كثيرًا من الأفكار الحلولية التي يقال إنها خاصة بـ"أفضل الكاشي" قد دسَّها أعداءُ الإسلام في هذه المؤلفات لتشويه روح الإسلام.

ليس لنا أن نجزم بأن المؤلفات المنسوبة لمولانا جلال الدين الرومي وما فيها له ﷺ؛ فقد اكتشف حتى اليوم أن بعضها منحولة عليه.

منها كتاب "فيه ما فيه" يعزوه بعضهم لأفضل الكاشي، وهذا الرجل من أنصار الأفلاطونية المحدثة، فكر طوال حياته كلها في إحياء الأفلاطونية، بل يمكن القول بأنه اتخذ من هذه الفكرة هدفًا لحياته، وهو حروفيٌّ أيضًا؛ اعتنق مذهب فضل الله الحروفي الذي يرى أن الحروف ذرات الكائنات.

لقد كذب أناس على رسول الله ﷺ، فليس غريبًا أن تُدسّ أكاذيب وافتراءات في أقوال هؤلاء العظام.

وكثير من أئمة الحديث كالإمام البخاري كانوا يعرفون هذا القول أهو من كلام سيدنا رسول الله ﷺ أم لا؛ فجهابذة نقد المتن كانوا يقفون على الأقوال التي ينقحونها ليروا هل تفوح منها رائحة النبوة أم لا، وهكذا تم نقد الأحاديث وتمييزها، لكن هذا بعيد المنال في كلام الصوفية.

زد على ما سبق أن محيي الدين بن عربي يقول: "حرام على غيرنا قراءة كتبنا".